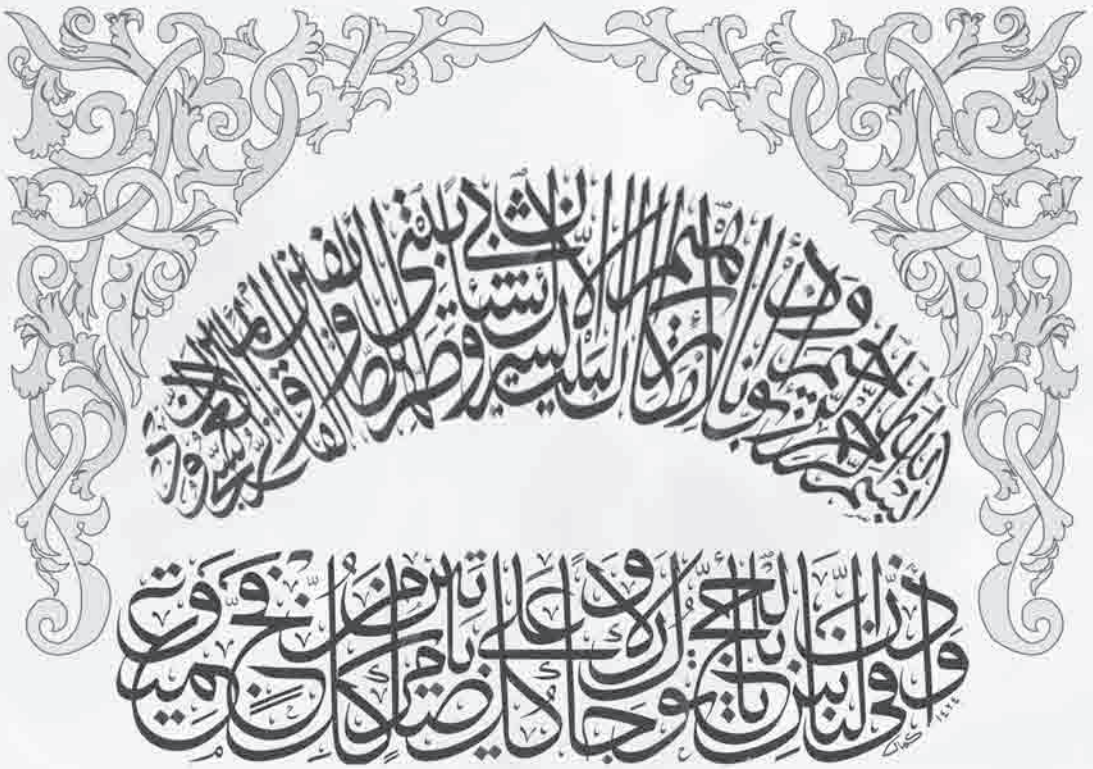

قراءة في
سورة الحج

محسن الأسدي

تعدّ هذه السورة المباركة من السور القرآنية العجيبة لأنها وسورة الجمعة تحملان اسماً يدل على فريضة عبادية، وإذا تمعنا أكثر لوجدنا أن سورة الجمعة تتحدث عن صلاة الجمعة وهي فريضة واحدة من فرائض الصلاة لا عن الصلاة ككل، وعندئذ نعرف أن سورة الحج التي نحن بصددها تفردت بأنها السورة الوحيدة التي سميت بهذا الاسم «الحج»، تخليداً لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام وندائه للناس لحج بيت الله الحرام، وذلك بعد انتهائه وابنه إسماعيل عليه السلام من بناء البيت العتيق وتطهيره كما يأتينا في الآيات التي ذكرناها ضمن المقالة هذه:

فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع نداؤه من هم في الأصلاب والأرحام وأجابوا النداء «لبيك اللهم لبيك..» كما تذكره كتب المفسرين. ولأن الحج فريضة عبادية ذات مكانة كبيرة ومنزلة رفيعة بمناسكه العديدة وبمبادئه الجليلة في الشريعة الإسلامية وفي الساحة الإيمانية .. فنالت اهتماماً كبيراً من قبل المسلمين وحظيت باهتمام واسع من قبل العلماء والفقهاء والمؤرخين والمفكرين والأدباء والشعراء والكتاب، وتوفرت على الكثير من المدونات والمصادر والمؤلفات المتحدثة عنها فقهاً وأحكاماً ومفاهيم وتاريخاً وأهدافاً ومنافع.. قد لا نجد مثيلاً لها في الفرائض العبادية الأخرى...

وهذا ما جعل لسورة الحج قيمة مضاعفة، فإضافة إلى أن لسورة الحج قيمة بذاتها حالها حال أي سورة قرآنية، تبرز قيمة أخرى لها من خلال موضوعها لأن الموضوع الأساسي للسورة كما هو واضح هو الحديث عن هذا الواجب العظيم

من واجبات الإسلام. وأهمية الحج أنه من أسمى العبادات التي يترك فيها المسلم كثيراً من عاداته التي تعوّد عليها في حياته ، ليبني نفسه من جديد ويعودها على الالتزام والجدية والصبر واقتحام الصعاب وتحمل المتاعب، وأن يجعل نفسه تتذوق معاني العبودية المطلقة الخالصة لله وحده تبارك وتعالى..

وهنا نحاول أن نعيش أجواء بعض آياتها، وهل هناك من ارتباط بين ما تتضمّنه هذه السورة القرآنية من مواضيع متعددة وفريضة الحج وأجوائها وغاياتها، من خلال تعرّضنا لبعض آيات الحج في السور : البقرة وآل عمران والمائدة، وفيما تتوفر عليه هذه السورة المباركة من آيات تشكل موضوع الحج فيها والتي كانت كما يبدو السبب في تسميتها بالحج، وقد كانت مصدر استفادة العديد من أحكام الحج وأحكام مناسكه وآدابه وأهدافه وما يتعلق به. فشأن هذه السورة شأن سائر السور المدنية التي تُعنى بأمور التشريع..

ومن الأمور اللافتة الأخرى لهذه السورة أنها مع مدنيتها إلا أنها يغلب عليها جوّ السور المكية وموضوعات السور المكية كالتوحيد والإيمان، والإنذار والتخويف من الساعة وإثبات البعث والجزاء وإنكار الشرك ومشاهد القيامة وأهوالها وآيات الكون المبثوثة في صفحات الكون كلها بارزة في السورة ، حتى ليكاد يُخيل للقارئ أنها من السور المكية ..

فيما هناك الموضوعات التي يغلب عليها الطابع المدني التشريعي من الإذن بالقتال والأمر بالجهاد في سبيل الله، فالمسلمون لم يؤذن لهم بالقتال والقصاص إلا بعد الهجرة، لردّ أذى المشركين والدفاع عن حرية العبادة .. كما أنها تتضمن أحكام

الحــج والهدي وحماية الشــعائر وما وراءها من إثارة مشــاعر التقوى في القلــوب لبناء الحاج بنــاءاً أخلاقياً صلباً.. ثم تذكر الوعد بنصر الله لمن يقع عليــه البغي وهو يرد العدوان، وغــير ذلك مــن المواضيع التي هي من خصائص الســور المدنية، حتى لقد عدها بعض العلماء من السور المشتركة بين المدني والمكي.

نزلت هذه الســورة بعد ســورة النــور، ترتيبها في القــرآن ٢٢ بعد ســورة الأنبياء، عدد آياتها ٧٨، عدد كلماتها ١٢٧٩، وعدد حروفها ٥١٩٦، وهي تشكل مع سورة الأنبياء الجزء ١٧، ويضمّهــا حــزب واحــد وهو الحزب ٣٤ .

فضلها

عــن أبي بن كعب أنــه قال: قال النبيﷺ: من قرأ سورة الحج أعطي من الأجــر كحجة حجهــا وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي.

قال أبو عبد اللهعليه السلام: من قرأها في كل ثلاثة أيام لم يخرج من سنة حتى يخرج إلى بيت الله الحرام وإن مات في سفره دخل الجنة .

وهي تعــدّ أيضاً مــن أعاجيب السور القرآنية كما يقول الغزنوي: «وهي من أعاجيب السور نزلت ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، مكياً ومدنياً، ســلمياً وحربياً، ناســخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً، مختلف العدد»[1].

إن آيــات هذه الســورة توزعت بــين ما هو مكــي وما هــو مدني، فمنهم مــن يقول: كلهــا مكية إلا بعض الآيات، فيمــا يقول غيرهم: إنها مدنيــة إلا بعض الآيات، وهذا يعــني أن الاختلاف وقــع بينهم في أصل الســورة بــين كونها مكية إلا بعضهــا وكونها مدنيــة إلا بعضها فهناك إذن آيات منها نزلت في مكة

فيما نزلت أخرى في المدينة، وفيها آيات نزلت ليلاً وآيات أخرى نزلت نهاراً، وآيات نزلت في السفر وآيات نزلت في الحضر...

ابن عباس في قول ومجاهد يذهبان إلى أن السورة مكية سوى ثلاث آيات:

﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ * وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾.

وعن ابن عباس أنهنّ أربع آيات أي بإضافة الآية التالية:

﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾.

وفي مجمع البيان عن ابن عباس وعطاء أنها مكية إلا آيات. ولم يذكر هذه الآيات.

وفي قول آخر منسوب إلى ابن عباس ومعه الضحاك وقتادة إلى أنها مدنية إلا أربع آيات:

﴿وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ.... عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، فهنّ مكيات.

أخرج ابن المنذر، عن قتادة قال: نزل بالمدينة من القرآن الحج، غير أربع آيات مكيات:

﴿وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ.... عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[٢].

وقال الحسن كما عن مجمع البيان: هي مدنية غير آيات نزلت في السفر، وقال بعضهم: غير ست آيات، وقال بعضهم: غير أربع.

وعد النقّاش ما نزل بالمدينة عشر آيات. وقال الجمهور: السورة مختلطة منها مكي ومنها مدني.

يقول القرطبي في جامعه: وهذا هو الأصح لأن الآيات تقتضي ذلك، لأن ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكي و ﴿يا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مدني[٣].

آيتا السجود

ذكرت بعض الروايات أن سورة الحج تتضمن آيتين يسجد عند قراءتهما، وقد تميزت بهما هذه السورة بل وفضلت بوجودهما على غيرها من السور القرآنية، وهاتان الآيتان هما:

﴿أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَ مَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾[٤].

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٥].

ومن هذه الروايات:

وجاء في فضلها ما رواه الترمذي وأبو داود والدارقطني عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله فضلت سورة الحج بأن فيها سجدتين؟

قال: نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما.

أخرج أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي في سننه وابن مردويه، عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟

قال: «نعم. فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما».

وأخرج أبو داود في المراسيل والبيهقي، عن خالد بن معدان: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: فضلت سورة الحج على القرآن بسجدتين.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والإسماعيلي وابن مردويه والبيهقي، عن عمر أنه: كان يسجد سجدتين في الحج. قال: إن هذه السورة فضلت على سائر السور بسجدتين.

وأخرج ابن أبي شـيبة، عن علي وأبي الدرداء: أنهما سجدا في الحج سجدتين.

وأخرج ابن أبي شـيبة من طريق أبي العالية، عن ابن عباس قال: في سورة الحج سجدتان.

فيما أخرج ابن شيبة من طريق أبي العريان المجاشعي، عن ابن عباس أنه قال: في الحج سجدة واحدة. وهو قول سفيان الثوري..

إذن وقع الاختلاف بينهم بسـبب الروايات المختلفة في كونها تتضمن سجدتين أو سجدة واحدة . ولكن يبـدو أن فيهـا سـجدتين وهو ما عليه المصحف الشـريف . لكنهما سـجدتان غـير واجبتي السـجود، كمـا عليه الإماميـة الذين حصروا السـجود الواجب فقط بآيات سور العزائم الأربع:

السجدة: ١٥. فصلت: ٣٧ . النجم: ٦٢ . العلق: ١٩.

فالسجدة في سـورة العلق كانت أول آيـة سـجدة في القـرآن وهي خاصة بالرسـول صلى الله عليه وآله وحده، أما آية السـجدة في آخر سـورة الحج فهي آخر آية سـجدة نزلت وهي موجهة للمؤمنين جميعاً.

إن أول ما تتكلم عنه هذه السورة هو التقـوى ثم عن يـوم القيامة، فنراها تركّز من البداية على التقوى عبر خطاب عام لكل الناس، كما أن خطـاب الحج للناس كافة، ثم تنص على خطورة الساعة و زلزلتها التي تنتظرهم جميعـاً وأنه ذلـك اليوم العظيم «البعث والنشور والقيامة» قبل أن تنتقل إلى موضوع آخر، وهو الجهاد في سبيل الله، لتنتقل بعده إلى العبودية والخضوع لله تبارك وتعالى، وتبين بعد ذلك أن الله تعالى يسجد له من في السـماوات والأرض وأن السجود ليس مختصاً بالإنسان وحده وإنما يعـم جميع مخلوقاته سـبحانه

وتعالى.

فما هي تلك العلاقة التي تربط بين هذه الأمور ببعضها؟ وما علاقتها بالحج ومناسكه ؟

هناك سرّ في هذه المناسك العظيمة التي شرعها لنا الله تعالى في مخزون علمه سبحانه وتعالى، ولكن يمكننا أن نستجلي من خلال قراءتنا لأنشطة هذه الفريضة وما ورد فيها من آيات وروايات وأقوال وآراء وكتابات بعض ذلك السرّ.

فالواقع أن الحج هو العبادة التي تبني الأمة؛ لما فيه من عبر لا يعلمها إلا من حج واستشعر كل معاني الحج الحقيقية.

إن المسلم عندما يؤدي هذه العبادة العظيمة، أو يعيش مع الحجاج أو يتخيل نفسه معهم إن لم يكن فعلاً معهم يؤدي ما يؤدونه من مناسك الحج ، سيفهم ما يريده الله تعالى ربنا من السورة، شريطة أن نفهم أن الحج عبادة لها دور أساسي في بناء الفرد الذاتي والعقيدي و بناء الأمة وتثبيت وتعميق عقيدتها. وكأن السورة تقول لقارئيها: حجوا حجة صحيحة، كما هي الحجة التي حجها رسول الله صلى الله عليه وآله فهو القدوة والأسوة وهو القائل : «خذوا عني مناسككم».

لتبنوا أنفسكم البناء الصحيح وتدربوها على حمل المعاني الرائعة والمفاهيم الأساسية، لأن هذه الأمور جميعاً تعد عاملاً أساسياً لبناء الأفراد والمجتمعات وبالتالي الأمة كلها...

فما أنزل الله تعالى الآيات إلا في مكانها المناسب بتدبير وحكمة لا يعلمها إلا هو، ولكن إذا ما تمعنا في الآيات وتدبرناها واجتهدنا في التقصي والتحري لمعانيها فلعلنا نصيب حكمها ونفهم أهدافها ومراد الله تعالى منها ... وعندئذ قد نوفق بلطف من الله سبحانه لمعرفة

تلك العلاقة ..

فقوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾.

إذن الخطاب في بداية السورة جاء إلى الناس :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ..﴾.

وقد ذكرت لفظة (الناس) في السورة خمس عشرة مرة ، وهذه تعد أعلى نسبة في سور القرآن الكريم بعد سورة الناس التي ذكرت فيها لفظة الناس خمس مرات ، والمقصود بأعلى نسبة نسبة تكرار كلمة (الناس) إلى عدد كلمات السورة.. إذن هذا خطاب للناس بأن يتقوا الله تعالى لا إلى فئة معينة دون غيرها ..

فيما جاءت الآية ٩٧ من سورة آل عمران وهي توجب فريضة الحج:

﴿... وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾.

وقوله تعالى في سورة الحج الآية ٢٧:

﴿وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ...﴾.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ...﴾[٦].

إن خطاب الإيجاب للحج في آية الحج المذكورة من سورة آل عمران ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ..﴾ يدل على أن فريضة الحج هي العبادة الوحيدة التي عبر عنها بهذه الصيغة، وهذه الصيغة لا نجدها في إيجاب فريضتي الصلاة والصيام وأيضاً الزكاة، فقد توجه الخطاب فيهما إلى المؤمنين في سورتي النساء والبقرة:

﴿إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً﴾[٧].

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٨].

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ... وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ..﴾[٩].

﴿وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ...﴾[١٠].

ولم يـــأت الخطاب : لله على الناس إقامة الصلاة أو إيتـــاء الزكاة أو لله على الناس أن يصوموا ..

كمـــا أن تقديـــم اللفـــظ (لله) على المبتـــدأ المؤخر يـــدل على أن الســـياق يفيد معنى الحصر، أي إن هذه العبـــادة هي لله وحـــده، وهذه خصوصية انطوت عليها هذه العبادة من بين ســـائر العبادات، ولهذا نجد بعـــض الروايات تبين أن الحج فرار إلى الله وحده، فعن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى :

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

قال : «حجوا إلى الله»[11].

فالحاج أسلم نفســـه وحياته بكل حالاتهـــا ولحظاتها لله تعالى وحده لا شريك له، يأمره فيأتمر وينهاه فينتهي، وجوده كله يصرفه في سبيل الله وقربة إليه وبالتالي فهو يصوغ حياته كلها وفق هـــدى الله ومنهجـــه ويبعدها عـــن كل ما يصرفه عن ذلك، وحتى يصل الحاج إلى هذه النتيجة عليه أن يلتزم بما يقولـــه الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أردت الحـــج فجرد قلبك لله عز وجل من قبل عزمك من كل شاغل وحجاب حاجب، وفوض أمورك إلى خالقـــك، وتوكل عليـــه في جميع ما

يظهر من حركاتك وسكناتك وسلّم لقضائه وحكمه وقدره ودع الدنيا والراحة»[١٢].

أو كما في تفسير للآية الكريمة ٢٦: ﴿وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي طهر قلبك لدخول السكينة فيه ولتحل فيه الأنوار الإلهية..

وقد قال القرطبي: والقائمون هم المصلون، ذكر تعالى من أركان الصلاة وأعظمها وهو القيام والركوع والسجود[١٣].

فبمثل هذه الحالة والتجريد النفسي والتطهير القلبي والتوجه الخالص والتسليم الكامل والتفويض المطلق يدخل الحاج الذي يريد أن يستفيد من فريضة الحج ويبني بها كيانه بجدّ وصدق، يدخل أيام الحج وموسمه وبمثل ذلك يخرج ليستقبل حياته من جديد وبتاريخ جديد يستأنف نشاطه..

لهذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «للحاج والمعتمر إحدى ثلاث خصال: إما أن يقال له: قد غفر لك ما مضى، وإما أن يقال له: قد غفر لك ما مضى فاستأنف العمل، وإما أن يقال له: قد حفظت في أهلك وولدك وهي أخسهنّ».

أو كما جاء في الحديث الذي يذكره الطبراني عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «... **وأما وقوفك بعرفة ... فلو كان عليك مثل رمل عالج أي متراكم أو مثل أيام الدنيا، أو مثل قطر السماء ذنوباً غسلها الله عنك. وأما رميك الجمار فإنه مدخور لك. وأما حلقك رأسك، فإن لك بكل شعرة تسقط حسنة. فإذا طفت بالبيت خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك**»..

أو وكما تحمله لنا رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام: «من أمّ هذا

البيت حاجاً أو معتمراً مبرءاً من الكبر رجع من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه، والكبر هو أن يجهل الحق ويطعن على أهله، ومن فعل ذلك فقد نازع الله رداءه»(١٤).

فالإنسان المؤمن يخرج من الحج ومن مناسكه إنساناً آخر بحياة أخرى، وكأنه يبدأ عمراً جديداً وشوطاً جديداً يحمل كل معاني الخير والعطاء لنفسه ولأسرته ولمجتمعه وأمته ولدنياه وآخرته..

ونلاحظ أن الخطاب في آية الحج جاء للناس دون سائر الأركان العبادية الأخرى، وهذا يدل على أن فريضة الحج كما يظهر هي استحقاق رباني، حيث إن التعبير عام كما في الآية يقول تعالى :

﴿لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً...﴾(١٥).

وهكذا

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾.

﴿..وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ﴾.

﴿وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾.

وحتى البيت نفسه مركز فريضة الحج هو مثابة للناس كما في الآية :

﴿وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً..﴾

وحتى الأذان بالحج كان للناس كما في الآية : ﴿وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ...﴾(١٦).

فهو للناس وللعالمين وعلى الناس وعن العالمين .. كلها ألفاظ تميزت بها هذه الفريضة مكاناً وزماناً وتاريخاً ودعوة، وتدل على عمومية الخطاب وهي فضيلة اختصّت بها دون سواها ..

يقول الشيخ السيوري في كنزه: (على الناس) عام أبدل منه (من استطاع) بدل بعض من الكل للذكور والإناث والخناثي، خص بمنفصل إما عقلاً وهو اشتراط

الفهم للخطاب لاستحالة تكليف غير الفاهم، أو نقلاً وهو قوله ﷺ:

«رفع القلم عن ثلاثة، عن الصبي حتى يبلغ، والمجنون حتى يفيق، والنائم حتى ينتبه».

ولما كان العبد محجوراً عليه لا قدرة له على التصرف في نفسه لم يكن مستطيعاً فخرج أيضاً من العموم(١٧).

إنه استحقاق، وهو دَين على الناس، كل الناس، كيف لا والمسجد الحرام هو أول بيت وضع لعبادةالله؟! كيف لا ومكة هي أم القرى، أي أمّ الأمم، فمنها كان انطلاق الإنسان في خلافته الأرض؟! من هنا كان الخطاب للناس كل الناس.

فكما خوطب الإنسان أن يعبد ربه وحده، وفق ما بيّنه الله تعالى في رسالاته، خوطب أيضاً بأن يقصد البيت الحرام الذي فيه عبد الآباء الأوائل ربهم، والذي منه انطلقوا ليكونوا خلفاء الأرض، ومن أراد أن يستجيب إلى هذا الأذان فعليه أن يقبل شروط أداء هذا الاستحقاق.

من هنا ندرك بعض أسرار ختم الآية (٩٧) من آل عمران بقوله تعالى: ﴿...وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾.

ثم إذا عدنا إلى قراءة الآية (٩٦) من سورة آل عمران، والتي تسبق الآية (٩٧) تقول:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ﴾

نلاحظ:

﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ ... هُدىً لِلْعالَمِينَ﴾.

والآية (٩٧) ﴿... وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ... غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾.

ونرجع إلى الآية (٢٧) من سورة الحج وهي آخر آية ذكر فيها لفظ الحج في القرآن الكريم نجد أن أذان إبراهيم عليه السلام بالحج كان أذاناً

عالمياً عاماً للجميع بعد أن هيأته له السماء ووطأته كما في الآية الكريمة ٢٦ من السورة نفسها: ﴿وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ﴾.

و﴿أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾.

فهو بيت لله وحده دون سواه.

ثم يأتي التطهير ﴿وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فلهؤلاء أنشئ البيت، الذين يعبدون الله تعالى ولا يشركون في عبادتهم له أحداً في طوافهم بالكعبة وفي قيامهم وركوعهم وسجودهم .. كل هذا كان تمهيداً للأذان المبارك.

﴿وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

يأتون يسعون على أقدامهم من طرق بعيدة وعلى كل إبل وقد جهدها السير والبعد والجوع فهزلت وضمرت حتى ورد أنه لا يدخل بعير ولا غيره الحرم إلا وقد هزل..

وفي ثواب السعي إلى البيت المبارك روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال لبنيه : يا بني حجوا من مكة مشاة حتى ترجعوا إليها مشاة فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: للحاج الراكب بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللحاج الماشي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم . قيل : وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنة بمائة ألف حسنة[١٨] .

وبدلالة ﴿وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ...﴾ و﴿... مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ..

أي نادِ في الناس وأعلمهم بوجوب الحج وإن تعددت أماكنهم وتباعدت بلدانهم وتناءت أمصارهم ..

ولا بأس بنقل هذا الخبر: قال محمد بن ياسين : قال لي شيخ في الطواف: من أين أنت؟ فقلت: من خراسان .

قال : كم بينكم وبين البيت؟ قلت: مسيرة شهرين أو ثلاثة . قال : فأنتم جيران البيت . قلت : أنت من أين جئت؟ قال : من مسيرة خمس سنوات وخرجت وأنا شاب فاكتهلت . قلت: والله هذه الطاعة الجميلة والمحبة الصادقة . فقال :

زر من هويت وان شطت بك الدار
وحال من دونه حجب وأستار
لا يمنعنك بُعد عن زيارته
إن المحب لمن يهواه زوار[19]

وسواء أكان المخاطب نبي الله إبراهيم أم رسول الله محمد صلوات الله عليهما، فقد وقع الاختلاف بين المفسرين في من الذي يؤذن بالحج؟

فجمهور المفسرين ذهب إلى أن المخاطب هو نبي الله إبراهيم عليه السلام وقالوا: أسمع الله تعالى صوت إبراهيم كل من سبق علمه بأنه يحج إلى يوم القيامة ... عن ابن عباس قال : لما أمر الله سبحانه إبراهيم أن ينادي في الناس بالحج صعد أبا قبيس «وهو جبل» ووضع إصبعه في أذنيه وقال : يا أيها الناس أجيبوا ربكم فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأول من أجابه أهل اليمن.

فيما ذهب غيرهم إلى أن المخاطب بالآية هو نبينا محمد صلى الله عليه وآله أي وأذن يا محمد في الناس بالحج فأذن صلى الله عليه وآله في حجة الوداع، أي أعلمهم بوجوب الحج[20]..

إن الحج إلى البيت العتيق كما يبدو لمن تتبع تاريخ الحج كان في شريعة الأنبياء والرسل وأنه كان عبادة مألوفة منذ عصور قديمة، فقد صحت آثار على ذلك، منها:

ما ورد من أن هوداً وصالحاً عليهما السلام قد مروا بوادي عُسفان يلبون ويحجون البيت العتيق... ومن أن يونس وموسى عليهما السلام قد حجا أيضاً[21].

وأيضاً يمكن الاستفادة من الآية (٢٧) من سورة القصص التالية على أن الحج كان معروفاً لهم حيث اعتادوا أن يعدوا السنين بالحج، وفي ذلك يقول نبي الله شعيب لموسى الكليم عليهما السلام:

﴿قالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِى ثَمانِىَ حِجَجٍ...﴾.

المقصود هنا ثمانية أعوام، وإنما سمي العام حجة على اعتبار أن في كل عام حجة إلى بيت الله الحرام، وهذا قد يصح أن يكون دليلاً على أنهم كانوا يحجون. ويقال في لغة الشهور: «ذو الحجة»؛ لوقوع حج البيت في هذا الشهر..

وإذا ما نظرنا إلى الحديث النبوي الشريف:

«الحج عرفة».

وإلى ما عليه الناس من الاجتماع في صعيد واحد أرض عرفة وزمن واحد يوم عرفة، ندرك عندئذ الطابع الجماعي وهو ما يحمله الخطاب الجماعي لهذه الشعيرة والعبادة المباركة الوارد في آياتها، بل إن مناسك الحج وأعماله ترمز بأجمعها إلى السنن الفاعلة في الاجتماع الإنساني أو البشري. وإذا كان بالإمكان أن يصلي الإنسان أو يصوم وحده فقد لا يكون بالإمكان أن يحج الإنسان وحده أو لا يجد نفسه إلا وهو محاط بالكثير ممن يحجون معه، ولم يحدثنا تاريخ هذه العبادة إلا عن الحج وهم مجتمعون ، فالحج عبادة جماعية يرجى أن تحقق آثاراً تتعلق بالمجموع الإنساني، وهو نفير عام في جميع المواقف والمناسك في الإحرام وفي التلبية والطواف والسعي والوقوف في المشاعر المقدسة عرفات والمزدلفة ومنى والجمرات، يعلن فيه الجميع استجابته لمتطلبات رسالة الإسلام وأحكامه وقيمه، ورفضه لغير الإسلام من الكفر والانحراف

ومناهج الشياطين من الإنس والجن.

يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر+: ألا ترى أنّ أهم ما يبدو للإنسان في هذا المنسك الرائع منسك رمي الجمار هو هذا الرمي المجموعي لرموز الشيطان واحداً بعد الآخر تعبيراً حسياً عن لزوم نفي الشر من الأرض بعد اتباع طريق الخير، والطواف حول رمز الخير الكعبة، والجميل في الأمر أن المسلم يشعر إذ يطوف حول مركز واحد، ويرمي رموزاً للشر ثلاثة بأن طريق الله واحد في حين أن طرق الشيطان متعددة، وباستحباب التكبير له عند كل رمية يشترك اللفظ في الموقف ليؤكد في شعور الإنسان عهده لله تعالى بأن يرمي الشر والشيطان ولا يتبعهما، ويبقى وفياً لعقيدته بأن الله خالق كل شيء وفوق كل قوة[٢٢].

إنه بحق مؤتمر إيماني إنساني كبير لا نظير له تحت شعار واحد ونداء واحد واستجابة واحدة:

«لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ...».

ويأمل المخلصون من أبناء الإيمان أن يساعد تطور الوعي والمعرفة عند الناس خصوصاً الأمة الإسلامية على إدراك جوهر الحج ومراميه وأهدافه، لتعود فعالية هذه الأمة كما بدأت في حمل رسالة الإسلام الحق إلى البشرية جمعاء.

هذا فيما يتعلق بالخطاب الأول لسورة الحج ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ...**﴾ فهو خطاب عام وخطاب الحج خطاب عام أيضاً.

التقوى

إن أول ما بدأت به هذه السورة المباركة: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ..**﴾ وفي الآية الثانية والثلاثين التي تتوسط تقريباً آيات الحج في

هــذه الســورة ﴿ذلِكَ وَ مَــنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ وللشعائر تفاسير منها :

إنها معالم ديــن الله والأعلام التي نصبهــا لطاعته، ثم اختلف في ذلك فقيل: هي مناســك الحــج كلها .. وقيل: هي البــدن .. وقيل: دين الله كله، وتعظيمها التزامها[٢٣]..

وســواء هي معالم دين الله أم هي مناســك الحج ومنهــا البدن أم هي دين الله كله وتعظيمها يعني التزامها، فــإن الغايــة منهــا هو هــذا الأمر العظيم والذي هو أساس كل شيء في حياتنا «التقــوى» أن لا يراك الله تعالى حيــث نهاك ولا يفقدك حيث أمــرك . أو احترســوا بطاعته عن عقوبته ... وكل ما نجده في عرصات وميادين هذه الفريضة من مناســك كلها طاعــة لله تعالى ومواضع عبادة تحب الســماء وجودنا فيهــا وتثيبنا عليه.. وهي تؤسس للتقوى وتبنيها في النفــوس وتثبتهــا في القلــوب عبر طاعة خالصــة لأوامر وأحكام على جميع الحجيج الالتزام بها وإلا ترتبت علــى مخالفتها عقوبات.. إن الحج مدرســة نتيجتها التقوى وهو الفوز الكبير .. وإضافة التقوى إلى القلوب ﴿فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ لأن حقيقة التقوى تقوى القلوب ..

وتربــط بين الهدي الــذي ينحره الحاج وتقوى القلوب إذ إن التقوى والقول لســيد قطب هي الغاية من مناسك الحج وشعائره. وهذه المناسك والشــعائر إن هي إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته. وقد تحمــل في طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم عليه السلام وما تلاه، وهي ذكريات الطاعة والإنابة والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة، فهي والدعاء والصلاة سواء[٢٤]..

ثم تأتــي التقوى أيضــاً في الآية الخاتمة لآيات الحج، وهي الســابعة

والثلاثــون: ﴿لَنْ يَنــالَ اللهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُهــا وَ لكِــنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ...﴾.

وهم حين يؤمرون بنحرها باسم الله ﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها﴾، فإن اللحوم والدماء لا تصل إلى الله سبحانه إنما تصل إليه تقوى القلوب وتوجهاتها لا كما كان مشركو قريش يلطخــون أوثانهم وآلهتهــم بدماء الأضحيــات على طريقة الشــرك المنحرفة الغليظة[٢٥]..

وجاءت الآية تذكيراً للناس جميعاً وتحذيراً لهم من هول تلك الســاعة وعظيم حدوثها وشدة خطرها، وأنه لا بد لهم من ذلــك اليوم الرهيب يوم الحساب الأكبر، إنه يوم القيامة. فمن أول آيــة نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

إن فريضة الحج المباركة في أغلب مناسكها ومفاصلها تذكرنا مشاهدها بذلك اليوم العظيم وهذه المشــاهد تجسّد لنا العلاقة بين الحج والحديث عن القيامة ..

فلبــاس الإحرام والغســل الذي قبله يذكرنا برحلة الموت وقد بدأت بالتغسيل ثم التكفين .. لباس الحج البسيط يذكرنا بالكفن الذي يلبس للموتى..

يذكرنا بأننا لا نخرج من الدنيا إلا بهاتين القطعتين .. وندع كل شيء خلف ظهورنا، كل ما جهدنا أنفسنا للحصول عليه وكل ما اختلفنا من أجله أو تنازعنا عليه أوتقاتلنا بسببه وتقاطعنا نذره وراءنا ..

إن الحج ولباسه يطلب منا العودة إلى حيــث البدايــة، بــل إن الحاج يتمثــل الحالة التي كانــت أولاً من البساطة في المظهر واللباس ..

وزحمة الحج والناس يملأون أرجاء أرض المناســك وكلهم متجهون إلى مكان واحــد في لباس واحد في حر الشمس، والنزول من عرفة والنفرة

من مزدلفة والتوجه لرمي الجمرات تذكرنا بزحمة ذلك اليوم يوم القيامة . الشمس الضاربة المحرقة والحر الشديد والعرق والزحام الخانق وما يترتب على هذا كله من متاعب وحرج وضيق و أذى .. يذكرنا ببأس يوم القيامة وهوله ..

والطواف بالبيت المبارك والسعي بين الصفا والمروة وما يرافق ذلك من الزحام الخانق والضغط الشديد، والانتظار الطويل والصبر والتحمل والتقيد بالتعليمات الخاصة بكل منسك والابتعاد عما يسبب الأذى للآخرين ومراعاة مريضهم وكبيرهم وصغيرهم .. يذكرنا بيوم القيامة ..بل إن القيامة لتتجسّم بمثل هذه المواقف المهابة في عمرة الحج ومتعته حيث الصحاري المملوءة بالحجيج والمشاعر المكتظة بهم ... تعلو أجسامهم ثياب بيض كالأكفان وتصهرهم أشعة الشمس وترى وجوههم تفيض عرقاً وأجسامهم كادحة وقد عنت للحي القيوم .. كما هي حالتهم حينما يقفون بين يديه تعالى للحساب وهم ينظرون إلى رحمته ولطفه بهم وهم شعث غبر، قد أخذ الجهد والإرهاق منهم مأخذه والعرق يتصبب منهم ينتظرون مغفرته ورضوانه ﴿وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾(٢٦) منتشراً يخشون أن يصيبهم بشرّه وضرره ويختم أمرهم إلى نار وقودها الناس والحجارة .. لكن هذه العبادة والصدق فيها تعطي الأمل لهؤلاء وهم يجوبون عرصاتها وهم يحرمون يلبون يطوفون يصلون يسعون يقصرون يدعون يذبحون يحلقون يرجمون .. فلا يقنطون كما تعطيهم رحمة الله تعالى هناك في عرصات يوم القيامة الأمل والرجاء والبشرى بالمغفرة والرضوان والجنة التي وعدهم إياها

رب العزة ﴿رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَ لا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ وحاشا لله أن يخلف ميعاده لأوليائه..

عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة يقول : يا ملائكتي انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً أقبلوا يضربون إلي من كل فج عميق فأشهدهم أني قد أجبت دعاءهم وشفعت رغبتهم ووهبت مسيأهم لمحسنهم وأعطيت محسنهم جميع ما سألوني غير التبعات التي بينهم ...».

أو كما في رواية أخرى عن رسول الله ﷺ يذكرها الطبراني: «أما خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام، فإن لك بكل وطأة تطؤها راحلتك، يكتب الله لك بها حسنة، ويمحو عنك بها سيئة. وأما وقوفك بعرفة، إن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا، فيباهي بهم الملائكة، فيقول: هؤلاء عبادي، جاءوني شعثاً غبراً من كل فج عميق، يرجون رحمتي، ويخافون عذابي ولم يروني، فكيف لو رأوني؟...».

جاء ذلك بسبب الدعاء المتواصل والدموع المنحدرة والقلوب المشدودة إلى بارئها والأعناق المشرئبة إلى ربها.. آلاف يتضرعون إلى الله يتوسلون إليه، أن ينجيهم من هول المطلع ونداؤهم يعلو يؤكدون استجابتهم: «لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك ...». يعترفون له أن كل شيء فانٍ إلا وجهك الكريم وأن كل شيء هو ملكك وحدك لا شريك لك ليست النعمة و المال إلا لك وليست القوة إلا بك وليس السلطان إلا لك وإنك المالك الحقيقي الذي يستوجب منا الحمد و الشكر دون أن يكون هناك أحد سواك .. وهو مشهد يحكي لنا وقوفنا

بين يديه تعالى وحده وحده.

﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٢٧).

وأكثر الروايات تؤكد أن التلبية تعبر عن استجابة بشرية كبرى لنداء تاريخي عظيم طلب من إبراهيم شيخ الموحدين أن يعلنه في الأرض وأعطي وعداً بأن يستجيب له المؤمنون . وهو ما وقع بالفعل منذ أول أذان بالحج وإلى يومنا هذا..

أما مشاهد ذلك اليوم ووصف أهواله فنترك الآية تصوره لنا وهل هناك تصوير أبلغ منها وأدق وأصدق حتى كأنك تراها أمام عينيك:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾.

وما مشاهد الحج إلا صورة عملية ومصغرة لحياها كل عام من مشاهد القيامة.

ثم تنتقل الآيات إلى البعث يوم الفزع الأكبر حين نفخة البعث لتقرّر بلا أدنى شك ولا ريب أن تلك الساعة واقعة لا محالة، وأن الله العزيز القدير سيبعث الموتى ويخرجهم من أماكنهم التي طال انتظارهم فيها والتراب يعلو وجوههم وأجسادهم.

﴿وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

لتذكرنا أن أمر الساعة والبعث واقع لا محالة، وإن ارتبنا في قدرة الله تعالى أن يبعث أشلاءنا وهي رمة أو رميم فإن الله القادر يذكرنا أن أصلنا كان من تراب، وأن خلقنا الأول كان من ذلك التراب وأننا أبناء الأرض التي تكونّا من ترابها ومنها نشأنا وكذلك عليها عشنا ومن عناصرها استفدنا وما زلنا..

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ

مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾.

إن انتابكم الشك في بعثكم ونشوركم فإنا خلقنا أباكم وهو آدمعليه السلام من تراب، فمن قدر على أن يصيّر التراب بشراً سوياً حياً في الابتداء، قدر على أن يحيي العظام وهي رميم ويعيد الأموات ويحشرهم إليه .. أيها الناس وإن من كان قادراً على الابتداء فهو قادر على الإعادة..

وفي الحج أيضاً، تذكرة لنا في الدنيا عن ذلك اليوم عندما تنظر لنفسك بعد يوم أو يومين من ارتداء ملابس الإحرام، ترى أنك أصبحت شعثاً وقد علاك التراب والغبرة. فإذا نويت المبيت في مزدلفة، ترى الكثير من الناس تعباً، لا بل كأنه من التعب والمشقة والإعياء ميت فعلاً. فمنظر الحجيج في مزدلفة وهم نيام بعد وقوفهم في عرفة وأداء أعمالها ثم إفاضتهم منها بذلك الزحام الشديد وعليهم آثار التعب ويعلوهم التراب والغبار والضنك . وما أن يؤذن لصلاة الصبح في المزدلفة حتى تراهم يقومون وينفضون عنهم التراب وينشطون من جديد كما لو أنهم بعثوا من قبورهم يوم البعث. نعم إذا أتى وقت الفجر يستيقظ الناس كأنهم يبعثون من القبور: الكل بالثياب البيض يتحرك هنا وهناك يستعد إلى حركة أخرى وهي رمي الجمرات وما يرافقها من أعمال منى...

لذلك تأتي الآية السابعة لتذكرنا بالبعث من القبور:

﴿وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

وهكذا نرى أول أثر من آثار الحج في تربية الأمة: تربيتها على اليوم الآخر والاستعداد له، بأن يعيش أفراد الأمة بعض لحظاته ومعالمه العملية أثناء أيام الحج . .

الكل ساجد لله

ومن روعة الحج أنه يجعلك تستشعر أن الكون كله عبد لله وأنك خاضع لله مع من حولك . ففي يوم عرفة تشعر أنك لست وحدك من يسجد لله في هذا الكون ويدعوه، بل تشعر أن كل شيء ساجد فالخيمة التي تستظل تحتها ساجدة ، وأن جبل عرفات الذي تعلوه ساجد، بل الكون كله ساجد ، فتنضم أنت أيها الإنسان الضعيف إلى هذه المخلوقات وتشاركها في سجودها وخضوعها لله تعالى. وهذا ما نراه بوضوح في الآية ١٨:

﴿أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّماواتِ وَ مَنْ فِى الأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَ مَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾.

في عرفة الجميع في الحج يدعون إلهاً واحداً حتى الشجر والدواب والطير والسموات والأرض كلهم يدعون ربهم ويسبحونه لكن لا نفقه تسبيحهم..

﴿..وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾.

إن الحج يذكرنا بالعبودية الخالصة لله تعالى فهذه حياة الأمة

المسلمة تقع بين سجدتين في سورة الحج، فأول سورة نزلت فيها سجدة مع بداية البعثة كانت سورة العلق، التي جاء فيها قوله تعالى:

﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ﴾

بينما آخر سورة نزلت فيها سجدة كانت سورة الحج، التي نزلت مع نهاية البعثة، والتي ترى فيها قوله تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

والفرق بين السجدتين يظهر النقلة العظيمة التي انتقلتها الأمة، من السجدة الأولى الموجهة للنبي صلى الله عليه وآله وحده في سورة العلق، إلى السجدة الأخيرة التي وجهت للأمة كلها في سورة الحج. فهي نقلة نوعية في فترة محدودة، من النبي وحده في غار حراء يعبد الله تعالى ويتفكر في ملكوته وفي أوضاع قومه وما آلت إليه أمورهم من عبادة الأصنام والأوثان والظلم والطغيان والتسلط والقهر والحروب ، فاعتزلهم وما يعبدون، فنقلوا نقلة نوعية إلى أمة مؤمنة عابدة مجاهدة ..

ثم تنتقل الآيات (٢٦-٣٧) إلى ذكر مناسك الحج المختلفة، لتأتي خلالها الآية المحورية: ﴿ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

وإذا عدنا إلى سورة البقرة إلى الآية ١٩٧ التي تنص على أن خير ما يتزود بـــه العبد المؤمن لآخرته هو التقوى ﴿... وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِى الأَلْبابِ﴾ خصوصاً إذا عرفنا أن العرب تطلق كلمة الزاد على طعام الســفر لا طعام الحضر، ولهذ نجد الإمام علياً عليه السلام يتأوه:

«آه من قلــة الزاد وبعد الســفر ووحشة الطريق وهول المطلع ..».

وقد جاء هذا بعــد أن نفت الآية نفســها كلاً من الرفث و الفسوق والجــدال، وأن لا تكون هذه الأمور حاضرة في ســاحة الحج لما تسببه من إفســاد للحج وآثام ومخالفات حيث قالت:

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُــوقَ وَ لا جِــدالَ فِى الْحَجِّ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْــرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْــرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِى الأَلْبابِ﴾.

ولورود هذه الكلمة في سورة الحج نحن نقف فقــط عند (ولا جدال) الذي يعــني فيما يعنيه أنه لا خصام في الحــج ولا ممــاراة في الحــج ولا ملاحاة في الحج ولا مشــادة في الحج؛ لما فيه مــن مخالفة للتقوى وإفســاد لهذا العمل العظيم.. إذن فلا جدال في الحج. الجــدال المنبوذ الذي يترك البغضاء والحقد في القلوب والسوء في العلاقــات والغضب الذي تمتلأ به النفوس...

والجدال مصدر جادل.. والجدال : أشد الخصام وهو مشتق من الجدالة، وهــي الأرض فــكأن كل واحــد من الخصمــين أو المتجادلين يقاوم صاحبه حتــى يغلبه فيكــون كمن ضرب بــه الجدالة أو يرميه بالجدالة قال الشاعر:

قد أركب الآلة بعد الاله
وأترك العاجز بالجداله
منعفراً ليس له محاله

ومنه الأجدل: الصقر لشدته . والجدل فتل الحبل، ومنه زمام مجدول أي محكم الفتل[٢٨].

وتأتي الآية نفسها لتحبب إلينا فعل الجميل عبر: ﴿وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾ ثم راحت الآية تدعو الجميع إلى الزاد الأكبر النافع عبر: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ﴾.

ومن اللافت أن سورة الحج تتعرض إلى الجدال الخالي من الدليل والمعرفة .. جدال التطاول المجرد من البرهان، جدال الضلال والانحراف المتبع لشيطان عاتٍ متبجح بعيد عن الحق مخالف له .. وقد جاء هذا النوع من الجدال مرتين في الآية الثالثة وفي الآية الثامنة من هذه السورة:

﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ...﴾

﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ...﴾

يقول صاحب مجمع البيان في الآية الأولى التي تحمل رقم ٣ : هذا إخبار عن المشركين الذين يخاصمون في توحيد الله سبحانه ونفي الشرك عنه بغير علم منهم، بل للجهل المحض وقيل: إن المراد به النضر بن الحرث بأنه كان كثير الجدال وكان يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، وينكر البعث...

وكأن السورة باعتبارها سورة الحج تحذرنا من الجدال وتبين خطورته على هذه الفريضة وعلى من يؤديها وإن أخذ شكلاً آخر ومنحى آخر، وأنه منبوذ في كل الأوقات ومحرم إلا أنه في موسم الحج أكثر خطورة وأشد حرمة حتى لا يشغلنا عن مناسكه وأدائها بالشكل السليم وحتى لا يمنعنا من الاستزادة من معاني الحج الجميلة ولا يبعدنا عن قيمها

وحلاوتها شيء .. ولهذا جاءت الآية: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا ... وَ لا جِدالَ فِى الْحَجِّ﴾.

إن مناسك الحج تعدّ غاية الطاعة لله تعالى .. إنك في خلال الحج، تنفذ أوامر وتعليمات محددة ومشددة من الله تعالى، إن لم تنفذها بدقة تفسد الحج. فالمسلم في الحج يطوف سبع مرات حول حجر، ويسعى سبع مرات بين حجرين الصفا والمروة، ثم عند رمي الجمرات، فهو يرمي بحجر على حجر ويكبر مع كل حصاة يرميها ... فهو يطبق مناسك عديدة قد لا يفهم الحكمة من ورائها، لكنه ينفذها فقط طاعة لله تعالى، واستسلاماً لأوامره، وانقياداً لأحكامه مع صبر رائع وتحمل كبير لا يداخله ملل ولا ريب.. وفي هذا قمة العبودية والطاعة لله تعالى، وقد شاركت الألفاظ الأعمال، ففي كل موقف كان اللفظ يشترك مع العمل والحركة توكيداً للطاعة والتزاماً بعهده لله تعالى، بأن يرمي الشر والشيطان ولا يتبعهما ويبقى وفياً لعقيدته بأن الله خالق كل شيء وفوق كل قوة .. إن الحج باختصار شديد وبنظرة إجمالية وبنظرة تفصيلية يشكل أروع الأساليب التربوية التي جاء بها الإسلام لتهذيب النفوس وتأكيد سيرها على خط التكامل..

إن الحاج يطوف بتلك المشاهد يستقرؤها ويتملّى فيها ويعاهدها على البقاء والثبات ويرجم كل ما عداها شياطين الإنس والجن..

إن الحج يعد دورة تدريبية لأداء فريضة أخرى من فرائض الإسلام تحتاج إلى الصبر والحكمة والتحمل، إنه الجهاد:

والمتدبر لكتاب الله العزيز يدرك أن مفهوم الجهاد يشمل كل جهد يبذل من أجل إعلاء كلمة لا إله إلا الله..

الجهاد في سبيل الله، الجهاد الذي

يستوجب الطاعة وبدونها لا يؤدي الجهاد دوره ولا ينتج لنا نتائجه المرجوة.

لذلك تأتي بعد آيات الحج مباشرة آيات الجهاد في سبيل الله، فنلاحظ أن الحديث حول الحج في سورة الحج يبدأ بالآية السادسة والعشرين وينتهي بالآية السابعة والثلاثين، ومن اللافت للانتباه أن الآية التي تليها مباشرة هي:

﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[٢٩].

تمهيداً كما يبدو للإذن بالقتال وقد جاء لأول مرة في التشريع الإسلامي:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[٣٠].

سبب نزول آية الإذن بالقتال

قال المفسرون: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون يجيئون من مضروب ومشجوج فشكوهم إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال، حتى هاجر رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال ابن عباس: لما أخرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر: إنا لله لنهلكن فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ﴾ الآية. قال أبو بكر: فعرفت أنه سيكون قتال.

وفي مجمع البيان: وهي أول آية نزلت في القتال[٣١].

ومن هم الذين ينص القرآن على أنهم مظلومون؟

إنهم ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾[٣٢].

وفي الذين أخرجوا احتمالان كما يذكر صاحب مجمع البيان:

أخرجوا إلى المدينة فتكون الآية مدنية. ويحتمل إلى الحبشة فتكون الآية مكية، وذلك بأنهم تعرضوا لهم

بـــالأذى حتى اضطروا إلى الخروج.. لم يخرجـــوا من ديارهـــم إلا لقولهم: ربنـــا الله وحده، وقال أبو جعفر عليه السلام: نزلـــت في المهاجريـــن وجـــرت في آل محمـــد عليهم السلام الذيـــن أخرجوا من ديارهم وأخيفوا..

ثم يأتي الكلام عن ســـنّة التدافع التي شرعت للدفاع عن الحق وحفظ معالمه:

﴿.. وَ لَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْـــضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِـــعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

إن قوى الشـــر والضـــلال تعمل في هـــذه الأرض، والمعركة بين الخير والشر والهدى والضلال والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان.. والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان والبيع للنصـــارى عامـــة وهي أوســـع من الصوامع، والصلوات أماكن العبادة لليهـــود والمســـاجد أماكـــن العبادة للمسلمين، وهي كلها معرضة للهدم على قداستها وتخصيصها لعبادة الله لا يشـــفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها، ولا يحميها إلا دفع الله النـــاس بعضهم ببعض أي دفع حماة العقيدة لأعدائهـــا الذين ينتهكون حرمتها ويعتدون على أهلها(٣٣)..

وبعد ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ هذا وعد من الله بأنه ســـينصر من ينصر دينه وشريعته ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيـــزٌ﴾ فوعد الله المؤكـــد الوثيق المتحقـــق الـــذي لا يتخلـــف يأتي لأهل الصـــلاح في الأرض ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُـــمْ فِـــي الأَرْضِ أَقامُـــوا الصَّـــلاةَ وَ آتَوُا الـــزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(٣٤).

«والتمكـــين إعطـــاء مـــا يصـــح معه الفعـــل...» والقـــول لصاحب

مجمع البيان.

فجهاد معسكر الإيمان يكون لأهداف سامية تتعلق برفع الظلم، وإحقاق الحق، وإصلاح الأرض. ولا يجوز أن يكون من أجل التسلط والاستضعاف.

أمّا خاتمة سورة الحج فهي الآية ٧٨: ﴿جاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

لقد جاءت آيات الجهاد في السورة بعد آيات الحج لأن الحج تدريب أساسي وقاس على الجهاد في سبيل الله، لأنه عبارة عن حركة شاقة وانتقال من مكان إلى آخر، والحاج كالمجاهد تماماً كثير الارتحال بين الأماكن والمناسك دون أن يعرف الاستقرار، وفي هذا تعب ومشقة والتزام بأوقات ومشاعر أمر بها الله تعالى وعلمنا إياها رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله..

وختاماً إن من يريد أداء هذه الفريضة العظيمة، أو على الأقل العمرة، عليه أن يعدّ نفسه ويربيها على المعاني التي أتت في هذه السورة الكريمة. وأن يقرأ سورة الحج بنية من يريد أن يستفيد من دروس الحج ومعانيه، حتى لو لم تتح له الفرصة بعد.

وتلك هي ملامح قراءة بعض آيات هذه السورة المباركة وارتباطها ببعضها وبأنشطة فريضة الحج المعطاء.

الهوامش

١. انظر: أحكام القرآن للقرطبي، السورة.
٢. الحج: ٥٢–٥٥.
٣. انظر كلاً من أحكام القرآن للقرطبي ومجمع البيان للطبرسي : سورة الحج.
٤. الحج: ١٨.
٥. الحج: ٧٧.
٦. آل عمران: ٩٦.
٧. النساء: ١٠٢.
٨. البقرة: ١٨٣.
٩. البقرة: ١٧٧.
١٠. حم السجدة: ٧.
١١. سفينة البحار: ٢١٠.
١٢. المصدر نفسه: ٢١١.
١٣. انظر: تفسير وبيان مفردات القرآن د. الحمصي . أحكام القرآن: الآية.
١٤. انظر: من لا يحضره الفقيه ٢ : ١٣٦.
١٥. آل عمران: ٩٧.
١٦. الحج : ٢٧.
١٧. انظر: كنز العرفان في فقه القرآن، كتاب الحج؛ وانظر السراج المنير ٢ : ٣١٧، من حديث عائشة وعمر وأخرجه في الوسائل عن الخصال الباب ٤ من أبواب العبادات ح ١١...
١٨. انظر: مجمع البيان للشيخ الطبرسي : الآية.
١٩. هامش تفسير وبيان مفردات القرآن : الآية الكريمة. إعداد د. الحمصي.
٢٠. هذا تلخيص ما ورد في مجمع البيان للطبرسي : الآية.
٢١. انظر: مسند أحمد و صحيح مسلم.
٢٢. انظر: نظام العبادات في الإسلام . الحج.
٢٣. انظر: مجمع البيان : الآية.
٢٤. انظر: في ظلال القرآن: الآية.
٢٥. المصدر نفسه.
٢٦. الإنسان : ٧.
٢٧. الشعراء: ٨٨–٨٩.
٢٨. انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، الآية.
٢٩. الحج : ٣٨.
٣٠. الحج : ٣٩.
٣١. انظر: الواحدي في أسباب النزول لمزيد من الاطلاع.
٣٢. الحج: ٤٠.
٣٣. انظر: في ظلال القرآن : الآية.
٣٤. الحج: ٤١.